أ. الباحث/ محمد الأمين ولد لكويري

البطل مولاي ولد احمياده.. ودوره في مقاومة المستعمر

إن من يريد أن يكتب عن مولاي ولد احمياده من جميع جوانب شخصيته، سوف ينفق وقتا طويلا، ويريق مدادا كثيرا، مدادا قد لا يتسع له كتاب، أحرى صفحات من مجلة، لذلك فإننا لن نخرج في هذه الورقات عن الجانب السياسي من شخصية هذا الرجل، بل سنخصصها لشطر من جانبه السياسي؛ هو دوره في مقاومة المستعمر.

ما من أمة تحس بخطر ما، يهدد كيانها ويستهدف ثوابتها، إلا وهب مخلصو أبنائها مدافعين بكل ما أوتوا من قوة لدفع ذلك الخطر، وهكذا بادر أبطال موريتانيا الغيورون عليها لصد خطر الاحتلال الذي نالوا نصيبهم منه حين طفق يجثم على صدور شعوب المنطقة، وكان من خيرة الأبطال الذين ظلوا يؤرقون المستعمر؛ البطل مولاي ولد احمياده، الذي يعترف له قادة الاحتلال أنه أشجع وألد أعدائهم، وأكثرهم يقظة وحنكة سياسية، كما سنرى في شهادات أعدائه منسوبة إلى مصادرها.

لكن قبل أن نتحدث عن تلك المحطات لا بد أن نسلط الضوء قليلا على البيئة التي تربى فيها الرجل، والتي كان لها الأثر البارز في تشكل شخصيته، ومعلوم أنه لا غنى لمن يتحدث عن شخصية، أي شخصية، عن التعريج على البيئة التي نشأت فيها، وفيها ترعرعت.

ينتمي مولاي إلى قبلية لعلب التروزية فـ «هو مولاي بن احمياده بن محمد بن ابيبكر بن محمد الازغم بن غفاف (جد لغوافيف) بن ابراهيم بن بوزيد (جد أولاد بوزيد) بن أكشار بن بوعلبه[1] «وأم مولاي هي منينه منت بوبكر ولد دبزني، بنت عم أبيه، ومن المفترض أن يكون مولده في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

كان آباء مولاي ولد احمياده أبطالا مغاوير، عرفتهم ساحات الوغى وعرفوها، فكانوا حماة حمى لا يستباح لهم حريم، كما عرفوا بحب المساكين والحنو على الضعاف ونصرة المظلوم والدفاع عنه، فكانوا يقدمون أرواحهم دفاعا عن المستجير بهم، وقد شهد الرائد افرير جان بشجاعة قبيل مولاي (لعلب) وغنائهم في الحروب، حيث يقول هذا الرائد في فقرة من مذكراته إن لعلب «يعتبرون أهم مقاتلي اترارزه[2]»

وفي ظل هذه البيئة تكونت شخصية ولد احمياده، كما أن نشأته فيها تعد المؤثر الأقوى الذي أثر في تكوينه النفسي والاجتماعي، «فكان مولاي من أبرز رجالات الترارزه في عصره، وأكثرهم حكمة وشجاعة[3]»

تولى مولاي السيادة بعد موت أبيه احمياده ولد محمد ولد ابيبكر، فكان السيد المطاع، والحكيم السديد الرأي، والشجاع المغوار، لكن مستجدات وتحديات رافقت أيام الرجل المؤمن بما لهذا المجتمع من ثوابت وقيم، جعلت عهده يختلف عن العهود التي سبقته، والتي ساد فيها أجداده؛ ففي هذا العهد تم غزو البلاد من طرف المستعمر الذي كان لمولاي معه صولات وجولات.

لم يكن يخفى على مهندسي الاستعمار الفرنسي ومخططيه أنه من شبه المستحيل الاستيلاء على أي شبر من أغلب أراضي موريتانيا قبل الاستيلاء على اترارزة والتحكم فيها، فهي البوابة شبه الوحيدة لأغلب مناطق الوطن، لذلك ركزوا عليها وبعثوا فيها عيونهم، والتي عادت جميعها بما يفيد بأن مولاي ولد احمياده من بين أخطر رجال هذه المنطقة وأكثرهم عداء للمحتل الفرنسي، وفق ما سنرى في هذه السطور.

حارب مولاي المستعمر وأعلن الدعوة إلى جهاده، ولم تثنه التهديدات ولا الترغيبات التي تصل من المستعمرين عن مواصلة مشواره العدائي لهم، الأمر الذي جعلهم يخططون للتخلص منه كما في بعض المصادر[4] «

فقد ورد في رسالة منسوبة إلى الحاكم العام لإفريقيا الغربية؛ أنه بعث إلى مفوض الحكومة الفرنسية في موريتانيا بمدينة «سينلوي» ما مضمونه أن خطر مولاي ولد احمياده أصبح يتفاقم خاصة بعد معركة أطلق عليها معركة «عكلة الم»، والتي كبد فيها البطل جنود المحتل خسائر فادحة، وهي المعركة التي يقول قادة المستعمر ـ حسب الرسالة ـ إنها لم تترك شكا في خطورة مولاي على مشروعهم، وفي ضرورة التخلص من هذا الرجل الذي يعتبرونه الرجل الأخطر، والعقبة الكأداء أمام دخولهم موريتانيا من بوابتها شبه الوحيدة اترارزه، موطن الرجل.

وقد اقترح الحاكم في الرسالة إبعاد مولاي؛ بنفيه إلى مستعمرة الكونكو وسجنه هناك حتى يتسنى إبعاد خطره عن الفرنسيين، كما طلب من الحاكم العام إعداد مشروع مقرر في الموضوع وإحالته للتنفيذ[5]«.

وكما أسلفنا، فإن الفرنسيين سمعوا الكثير عن بطولات مولاي وشدة حزمه وسداد رأيه ورجاحة عقله وشجاعته، وأنه جاءهم وفق ما كانوا يسمعون عنه، يقول الرائد افرير جان واصفا ما بدا أنه أول لقاء له مع مولاي: «كنت مستلقيا على كرسيي الطويل،

1 - المختار بن حامدن.ج: بنو حسان ص: 57
2 - الرائد افرير جاه موريتانيا 1903 ـ 1911ص: 51
3 - المختار بن حامد، مصدر سابق ، ص: 57
4 - نسخة من رسالة منسوبة إلى الحاكم العام لفرنسا في غرب إفريقيا إلى مفوض الحكومة الفرنسية في موريتانيا حول موضوع مولاي، والنسخة بحوزة حفيده أحمد سالم ولد مولاي.
5 - المصدر السابق: نفس الصفحة

في عنفوان أزمة الروماتيزم، كنت تافها بالنسبة لهذا الشخص الضخم الذي يتزعم لصوص الصحراء[6]« وهو وصف يطلقه قادة المستعمر على أعدائهم المقاومين.

ويؤكد الرائد الفرنسي ذلك بقوله إنه كان قد صرفه عنه نتيجة لحلول الظلام وتأخر الوقت، ليعود إليه في اليوم الموالي ومعه السباعي أخيارهم[7] فيقول الرائد حرفيا ـ وقد رأى مولاي في رابعة النهار، وبملامحه المخيفة للعدو، والتي ساق الرائد بعضها ـ : «إنه الشخص الذي كنت أتصوره[8]«

ولم يكتف الرائد بقوله إن ظنه لم يخب في مولاي، فربما ساق لنا بعض أوصاف ولد احميده بعد أن رآه بعيني رأسه، ومن ذلك قوله: «إنه ذو ملامح عربية واضحة، بل هو محارب شجاع يعرف المكائد وصاحب تجربة[9] « ويضيف الرائد الفرنسي أن انتصارات مولاي ولد احميده على أعدائه «أعطته سمعة لدى قبائل اترارزه[10] «

ليس غريبا أن يظل هاجس الخوف من هذا الرجل يؤرق قادة المحتل، فقد تتابعت اعترافاتهم بذلك، وشهدوا به ـ والحق ما شهدت به الأعداء ـ فنجد الرائد افرير جان كأنما بدأ يهذي خوفا من الرجل وانبهارا به، ليسوق فيه ما لم يسقه في غيره من محاربي البيظان: «إنه إنسان عظيم ضامر وقوي، أسمر اللون، رأسه كرأس الكواسر، ذو نظرات حية ولكن مع الحذر، فهو متملص وحركي، وباختصار؛ إنه نمط جيد للقائد المحارب[11]«

حاول قادة المستعمر استمالة مولاي وبذلوا الغالي والنفيس في سبيل التقرب منه، وسعوا إلى عقد الاتفاقيات معه، وقد كان لهم ذلك حين تم الإعلان عن وقف الحرب بين الرجل وبين المستعمر، عندما عقد الأمير أحمد سالم ولد اعل[12] اتفاقية مع الإدارة الفرنسية، شأنه في ذلك شأن أغلب أعيان البلد.

وكان مولاي ولد احميده عقد اتفاقا مع الفرنسيين، يتم بموجبه وقف الحرب بين الطرفين، وفي هذه الفترة قام الرجل بتأمين قافلة تحمل نفرا من بينهم ولد ابنو المقداد[13]، فقد تولى مولاي حماية هذه القافلة، وتأمينها من اترارزه في الجنوب الموريتاني وحتى منطقة آدرار في الشمال، حيث يقول ولد أبنو المقداد في تقريره عن مهمته في الشمال: إن الوضعية الخاصة لمنطقة الترارزه لم تكن تسمح لأحمد سالم بمرافقتنا لمدة طويلة، لذلك أسند حمايتنا لمولاي رئيس لعلب إحدى المجموعات التروزية[14].

ولعل ما دفع مولاي ولد احميده إلى مهادنة الفرنسيين في تلك الظروف بالذات؛ هو ما يتعرض له المستضعفون في المنطقة من اضطهاد ونهب من قبل أعوان المستعمر الفرنسي، وبعض من يتراءون بالجهاد وعداوة المحتل ويدعون أنهم يقاومونه، وغرضهم الحقيقي الإغارة على الضعفاء في مناطق الاحتلال ونهب ممتلكاتهم باسم الجهاد.

ومما يعضد هذا الذي ذهبنا إليه؛ كون ولد احميده اشترط أن لا يرافق اكزافيي كبولاني في رحلته إلى الجنوب الشرقي، وأن يبقى في المنطقة، ثم أثار مع قادة المستعمر قضية الظلم والنهب الذين تتعرض لهما قبائل الزوايا الذين لا يحملون السلاح، مبديا استعداده لحماية هؤلاء «بالتشاور مع الفرنسيين إن اقتضى الأمر[15]«

لكن فيما يبدو فإن مولاي لم يكن مقتنعا ـ عموما ـ بتلك الاتفاقية التي قد تكون فرضتها ظروف معينة، فلم يلبث أن غير رأيه، شأنه في ذلك شأن أمير اترارزه أحمد سالم ولد اعل، الذي كان هو الآخر من أكبر أعداء المستعمر وأشدهم، وقد جرت بين الرجلين عدة اتصالات في هذا المجال.

علم مهندس الاستعمار اكزافيي كبولاني بالموقف الجديد لمولاي، وأنه أصبح يعد العدة للهجرة ويحرض الناس عليها، «وقد تأكد ذلك لدى المستعمر عندما رحل فرع أهل سدوم من لعلب الشرقيين ونزلوا على مولاي قصد الهجرة[16]«

أراد كبولاني أن يستخدم قوته حتى يجبر مولاي على الرجوع عن موقفه الجديد، فبعث كتيبة أغارت على حي مولاي ضحى «عند بئر يسمى «أكْنَنت» وخلال اشتباك خاطف سقط ابراهيم ولد منظوم وولد كورني شهيدين من جنود مولاي[17] «لكن يبدو أن كتيبة المستعمر لم تفلح في هزيمة الرجل وجنوده، وتأديبه حتى يرجع عن موقفه كما أريد لها، حيث تمكن مولاي بعيد هذه الوقعة من الهجرة إلى الشمال.

6 - الرائد افرير جان، مصدر سابق: ص: 69

7 - هو أخيارهم ولد المختار ولد سيدي 1833ـ1907 كان له تأثير قوي في مجريات الأحداث سياسيا وعسكريا، عمل مستشار في بلاط عدد من أمراء اترارزه، وقال عنه الرائد الفرنسي افرير جان: إنه شخصية خارقة للعادة.

8 - الرائد افرير جان، مصدر سابق: ص: 69

9 - الرائد افرير جان، مصدر سابق: ص: 69

10 - الرائد افرير جان، مصدر سابق ص: 68 ـ 69

11 - افرير جان، مصدر سابق ص: 69

12 - هو الأمير أحمد سالم ولد اعل ولد محمد لحبيب تولى إمارة اترارزه بعد موت عمه أعمر سالم ولد محمد لحبيب سنة 1893 ومكث فيها إلى وفاته 1905 كان بطلا وسياسيا محنكا، تمكن من توحيد الإمارة وإنهاء التوترات داخلها، كما أعلن عداء المستعمر، ورفع راية الجهاد ودعا إلى توحيد صفوف المقاومة.

13 - هو محمدن (دودو) بن المختار سك الملقب ابن المقداد 1867ـ1943 سينغالي، درس اللغة العربية في موريتانيا وتعلم اللهجة الحسانية، عمل ترجمانا للفرنسيين في سينلوي، وكان حلقة وصل بينهم وبين الموريتانيين، وقد زار موريتانيا في ضمن بعثات في مهمات متعددة.

14 - ترجمة لتقرير رحلة ولد أبنو المقداد الاستكشافية إلى آدرار 1900 د. سيدي أحمد الأمير

15 - الرائد افرير جان، مصدر سابق، ص: 70

16 - الطالب الخيار ولد مامين.. الشيخ ماء العينين علماء وأمراء في مواجهة الاستعمار الأوروبي ج 2 ص 176

17 - المصدر السابق نفس الصفحة.

طالما أرق مولاي الفرنسيين الذين يرون أن أهل المنطقة أصبحوا يمتثلون آراءه المعادية لهم، وأن كل فعل يقام به ضدهم لم يغب عنه مولاي، فقد صرحوا أن قبيلتين من قبائل المنطقة أخبرتاهم أن جماعة طلبت منهما - أي من القبيلتين - أثناء فترة تهاطل الأمطار في شهر أغسطس أن تنضما إليها أي إلى الجماعة المذكورة، «للاستيلاء على اخروفه أي في فترة انهيار البئر، «وكان المشروع من تدبير مولاي[18].

ويكفي مولاي فخرا كثرة اتهام المستعمرين له بتدبير الخطط والأعمال المعادية له، لما يعرفون عنه من شجاعته وخدمة مبادئه، فمن ذلك إضافة إلى ما ذكرنا؛ ما حدثتنا به مصادرهم من اتهامه « بقطع أرجل الجمال في بعثة ابلانشي سنة 1900 بضربة من سكين لمنعه من الوصول إلى آدرار وإبقائه تحت رحمته[19]«.

اطلع الفرنسيون على حقيقة عدوهم اللدود؛ مولاي القوي الشجاع، فلم يرتاحوا لوجوده، وظل يؤرقهم، خاصة وأنهم فشلوا في دق الأسافين بينه وبين الأمير أحمد سالم، يقول افرير جان في معرض حديثه عن ضربة موجعة كانت وجهتها لهم بنت الإمارة الزغمه منت محمد لحبيب: «ماذا عسانا نستطيع أن نفعل وقد تدخلت النساء في مثل هذه الأمور؟ يرابط تجمع اترارزه في الشمال تحت تغطية من ولد ابراهيم السالم، ومن مولاي عند تنتردل شرق انواكشوط[20]«. هاجر مولاي ولد احمياده شمالا حيث كانت المقاومة أقوى وعيون الاحتلال أقل، وقد جعل من هناك منطلقا شن منه عدة غارات على جنود الاحتلال، مدعوما بمقاتلي أولاد باسباع الذين استقر فيهم خلال هجرته، حين نزل عليهم والتقى برؤسائهم: باب ولد لحريطاني، وعلي ولد المراكشي، وكمال ولد اباه، وابراهيم ولد الحاج ولد غده... ووفروا له الحماية، وهم نفس النفر الذين التقوا الأمير أحمد سالم ولد اعل واستقر معهم، وقد أمضى مولاي مع هؤلاء النفر السباعيين ما يقارب ثلاث سنوات اشترك خلالها إلى جانبهم في عدة غارات على الوحدات الفرنسية باترارزة[21].

وهكذا ظل مولاي يقض مضاجع المستعمر، والمستعمر يعمل الحيلة تلو الأخرى لاستدراجه حتى يتم التحكم فيه أو التخلص منه، إلى أن عاد إلى موطنه باترارزة، بطلب من الشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل[22] الذي أخذ له الأمان، لكن يبدو أن الفرنسيين ظلوا يشكون في نيات مولاي لما عرفوا من عدائه لهم، فاستدعوه إلى سهوة الماء، وتمكنوا من التخلص منه حين دسوا له سما في الشاي، فمات شهيدا وصلى عليه الشيخ أحمدو بنب الذي كان في إقامة جبرية بسهوة الماء أيامها[23]«

وقد أرخ العلامة بدا ولد أيشا[24] رحمه الله في نظمه في التاريخ (وفيات الأعيان) لوفاة مولاي بعد ذكره بعض أحداث عام 1325 للهجرة فقال:

وفيه مات الرأس ذو البسالـــــه
والعز والإحسان والبطالـــه
مولاي الذب ابنم احميـــــادا
وترك الأولاد والجيـــــادا[25]

وخلاصة القول أن الزعيم المجاهد مولاي ولد احمياده، كان بطلا مغوارا وسياسيا ذا حكمة وحنكة، غيورا على وطنه وثوابت أمته، فقد كان من أشد قادة المقاومة خطرا على المستعمر وأكثرهم عداء لسياساته التوسعية كما قدمنا في هذه الورقات.

وإن كان مولاي مر بمراحل - كما بينا أيضا - تستدعي مهادنة المستعمرين، وعقد الاتفاقيات المرحلية معهم بدواعي الوقوف في وجه الظلم والنهب الذين كانت تتعرض لهما قبائل الزوايا التي لا يحمل السلاح، من قبل أعوان المستعمر وبعض من يحترفون الجهاد لغرض ظلم الضعفاء ونهب ممتلكاتهم.

كما حافظ الرجل على سيادة قومه التي ورث عن آبائه، طيلة حياته، وبدون منازع، حتى ورثها عنه ابنه أحمد سالم الذي خلفه ابنه محمد بن أحمد سالم[26] « وهكذا ظل مولاي سيدا في قومه مجاهدا للمحتل واقفا في وجه سياساته التوسعية، إلى أن قرروا التخلص منه بعد أن يئسوا من كسب وده والتعامل معه كأحد أعوانهم الكثر.

رحم الله البطل المجاهد الشهيد مولاي ولد احمياده وأسكنه فسيح جناته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولائك رفيقا.

18 - الرائد افرير جان، مصدر سابق، ص: 199
19 - الرائد افرير جان، مصدر سابق ص: 69
20 - الرائد افرير جان، المصدر لسابق، ص: 195
21 - الطالب اخيار ولد مامين.. الشيخ ماء العينين علماء وأمراء في مواجهة الاستعمار (م س)ج 2 ص 176
22 - هو الشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضلبن مامين (1848_1917) عالم جليل، وشيخ طريقة صوفية، كان له دور بارز في سير الأحداث السياسية التي شهدتها المنطقة في عهده، وكان يرى رأي الشيخ باب ولد الشيخ سيديا في نازلة المستعمر.
23 - الطالب أخيار ولد مامين.. الشيخ ماء العينين علماء وأمراء(م س)ج 2 ص 177
24 - بدا ولد أحمدو ولد احمياده ولد أيشا (1932_1999) عالم جليل، له عدد من المؤلفات شمل أغلب حقول العلوم والمعارف الإسلامية.
25 - مخطوط بحوزتنا
26 - المختار بن حامد، مصدر سابق، ص: 57